

تطور الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام: دراسة تاريخية نقدية

فهد مطلق العتيبي

أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب
جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

المخلص

يعتبر الدين أمراً متأصلاً في النفس البشرية؛ فهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها منذ خلق آدم، عليه السلام، وما من شك في أن موضوع الدين وتشعباته على مر العصور يعتبر من الموضوعات التي حظيت بعناية الكثير من الدارسين، ولكن نظراً لاختلاف المنطلقات الدينية لبعض هؤلاء الدارسين من ناحية وعدم الإيمان الديني لدى البعض الآخر من الناحية الأخرى نجد أن هناك من اعتبر الدين أمراً طارئاً في حياة الإنسان؛ بل يرى هذا الفريق أن الإنسان قد تدرج في فكره الديني عبر خط تصاعدي من عبادة قوى الطبيعة وتمثيلها ببعض التماثيل حتى وصل أخيراً إلى التوحيد.

مثل هذه النظرة تم تطبيقها على الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ حيث يرى بعض الدارسين أن الإنسان العربي القديم قد مر بهذه المراحل المختلفة من تطور الفكر الديني حتى وصل في نهاية المطاف إلى مرحلة التوحيد، التي يرون أنها جاءت نتيجة تأثر الإنسان العربي القديم بالديانات التوحيدية التي دخلت الجزيرة العربية، ولاسيما اليهودية والنصرانية، ومن هنا فإن الحديث عن الحياة الدينية في الجزيرة العربية غالباً ما يبدأ بالحديث عن عبادة قوى الطبيعة والوثنية قبل أن يتم الانتقال إلى الحديث عن التوجه إلى التوحيد الذي بدأ يظهر مع مطلع القرن الرابع الميلادي.

وما من شك في أن مثل هذه النظرة الأكاديمية للفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام نظرة غير صحيحة؛ حيث نعلم - كما أخبرنا القرآن الكريم - أن الدين أمر متأصل في النفس البشرية، وأن التوحيد هو أصل الدين. فأدم - عليه السلام - كأول إنسان تم خلقه كان مسلماً موحداً، وكذلك بقية الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - دون استثناء، بل إن أول دعوة توحيدية في التاريخ البشري هي دعوة نوح - عليه السلام - وقد جاءت لإعادة الناس إلى طريق التوحيد القويم، فكما نعلم، كان الناس على التوحيد منذ عهد آدم وعلى امتداد عشرة قرون، ولكنهم حادوا عن طريق التوحيد، فجاءت رسالة نوح - عليه السلام - لتصحيح هذا الانحراف.

في هذا البحث سنتحدث عن تعريف الدين لغة واصطلاحاً، ثم نضع تعريفنا الخاص للدين، الذي سيكون تعريفاً من الممكن تطبيقه على الدين في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ثم نعالج ما كتب عن الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام معالجة تاريخية نقدية. حيث سنبين خطأ القول بتطور الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ثم نحاول أن نحدد الأسباب التي قادت إلى وجهة النظر هذه، ونتحدث بعد ذلك عن التوحيد باعتباره ديناً أول للإنسان قبل أن ينحرف الإنسان إلى الشرك، وأخيراً سنتأتي الخاتمة التي ستلخص أهم نقاط البحث، لتليها قائمة الهوامش والمراجع.

أن الدين أمر متأصل في النفس البشرية، وأن التوحيد هو أصل الدين. فآدم - عليه السلام - كأول إنسان تم خلقه كان مسلماً موحداً، وكذلك بقية الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - دون استثناء، بل إن أول دعوة توحيدية في التاريخ البشري هي دعوة نوح - عليه السلام - وقد جاءت لإعادة الناس إلى طريق التوحيد القويم، فكما نعلم كان الناس على التوحيد منذ عهد آدم وعلى امتداد عشرة قرون، ولكنهم حادوا عن طريق التوحيد فجاءت رسالة نوح - عليه السلام - لتصحيح هذا الانحراف.

ومن هنا، فإن فكرة التطور في الفكر الديني - ولاسيما في الجزيرة العربية قبل الإسلام - قد تقود إلى إعطاء صورة غير صحيحة؛ وذلك لأن مفردة التطور توحي بانتقال الفكر الديني من مرحلة بدائية إلى مرحلة أكثر نضجاً وإتقاناً، وهذا ما لم يكن؛ بل إن الفكر الديني بدأ بالتوحيد وانتهى بالتوحيد عندما ظهرت الدعوة الإسلامية في القرن السابع للميلاد، وما مر بهذا الفكر الديني بين هاتين الفترتين التوحيديتين يمكن أن نسميه "انتكاسات".

في هذا البحث سنتحدث عن تعريف الدين لغة واصطلاحاً، ثم نضع تعريفنا الخاص للدين، الذي سيكون تعريفاً من الممكن تطبيقه على الدين في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ثم نعالج ما كتب عن الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام معالجة تاريخية نقدية. حيث سنبين خطأ القول بتطور الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومن ثم نحاول أن نحدد الأسباب التي قادت إلى وجهة النظر هذه، ثم نتحدث بعد ذلك عن التوحيد باعتباره ديناً أول للإنسان قبل أن ينحرف الإنسان إلى الشرك، وأخيراً ستأتي الخاتمة التي ستلخص أهم نقاط البحث. لتليها قائمة الهوامش والمراجع.

البحث الأول - الدين: تعريفه وماهيته

أولاً - الدين لغة

بالنظر إلى المعاجم العربية نجد أن كلمة "دين" قد جاءت تحمل العديد من المعاني المختلفة؛ لكن هذه المعاني تدور حول معنى واحد، وهو

"لزوم الانقياد"، ومن بين هذه المعاني التي تتردد في هذه المعاجم "الإسلام، العبادة، الملة، التوحيد، الجزاء، الحساب، القهر، الذل، الملك، السلطان، الاستعلاء، الورع، المعصية، الإكراه...⁽¹⁾."

وتعود وفرة هذه المعاني إلى تعدد استخدامات الفعل "دين"؛ حيث جاءت هذه الاستخدامات على ثلاث صور؛ فقد يأتي الفعل "دين" متعدياً بنفسه، أو متعدياً باللام، أو متعدياً بالباء؛ فحينما يرد هذا الفعل متعدياً بنفسه فإنه يعطي معنى (الحكم، الملك، القهر، الحبس، المجازاة...) (دانه ديناً). ومنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَءِذَا مَنَّنا وَكُنَّا تَرابًا وَعِظْماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾⁽²⁾. والمقصود هل نحن مجازون ومحاسبون بعد الموت والفناء، ويدخل في هذا المعنى حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"⁽³⁾؛ أي العاقل من قام بمحاسبة نفسه ومجازاتها وقهرها عن شهواتها جاعلاً الآخرة نصب عينيه.

أما الصورة الثانية للفعل "دين" فهو أن يأتي متعدياً باللام، وفي هذه الحالة يحمل معنى (خضع له، أطاعه، دان له، عبده... إلخ)؛ حيث إن الدال والياء والنون أصل واحد، إليه يرجع فروعه كلها.

وهو جنس من الانقياد والذل. ومنها وقومٌ دينٌ، أي مُطيعون متقادون. قال الشاعر:

وكان الناس إلا نحن ديناً

وقد يأتي الفعل "دين" متعدياً بالباء. والجمع الأديان. يقال: دانَ بكذا ديانةً وتدينَ به، فهو دينٌ ومُتدينٌ. كأن يقال "دان باليهودية أو النصرانية أو الإسلام"، في هذه الحالة يكون المعنى المقصود هو الاعتقاد أو المذهب؛ جاء في الحديث الشريف: "كانت قريش ومن دان بدينهم" والمقصود من اتبع معتقدهم الديني ومذهبهم⁽⁴⁾.

ونستنتج من هذه التعريفات المختلفة لمفردة "دين"، أن هذه المفردة قد تشير إلى المتعبد أو المتعبد له أو العلاقة التعبدية بين الطرفين؛ فإن جاءت في

السياق مشيرة إلى المتعبد فإنها تحمل معنى الخضوع والانقياد، وإن أشارت إلى المتعبد له فهي تعني القوة والسلطة والسيطرة. أما إذا كان موضوع هذه المفردة الرابطة بين الطرفين المتعبد والمتعبد له فإن المعنى يكون حينها ذلك الدستور المنظم للعلاقة بين الطرفين.

وبالنظر إلى كلمة "دين" في اللغات الأوروبية نجد أنها تشير إلى عدة معانٍ؛ الأول: تلك الحالة الفردية التي يمر بها الشخص في علاقته مع من يعتبره إلهاً، وتشمل هذه الحالة العواطف والعقائد والأعمال التي تستلزمها هذه العلاقة. المعنى الثاني: ذلك النظام الاجتماعي الذي يؤلف بين مجموعة من الناس يؤمنون بإله واحد، ويشاركون في القيام بطقوس معينة تتطلبها عملية الإيمان هذه. لذلك نجد تعريف كلمة "دين" في قاموس أوكسفورد جاء على النحو التالي⁽⁵⁾:

- * The belief in and worship of a superhuman controlling power, especially a personal God or gods.

الاعتقاد بقوة فوق بشرية وعبادتها. هذه القوة تكون إلهاً واحداً أو عدداً من الآلهة.

- * A particular system of faith and worship.

نظام عبادة معين.

- * A pursuit or interest followed with devotion.

اهتمام أو رغبة يتم إشباعها بإخلاص.

وكما نرى من هذه التعريفات فإن كلمة "دين" قد تشير إلى الأديان السماوية التوحيدية، كما قد تشير إلى الأديان الشريكية، ولكن يغلب - كما يظهر - الطابع الفردي على تعريف الدين في اللغات الأوروبية.

ثانياً - الدير اصطلاحاً

وجد العلماء صعوبة كبيرة في وضع تعريف موحد ودقيق للدين. يقول جيمس فريزر: " لا يوجد موضوع في العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت

حول تحديد طبيعة الدين" (6). وتكمن هذه الصعوبة في العديد من الأمور؛ أولاً: تعدد الزوايا التي ينظر منها العلماء إلى الدين. فهناك من يتناول الدين من زاوية علم الاجتماع أو علم النفس أو التاريخ أو الفلسفة أو حتى السياسة، ومن هنا تعددت تعريفاته، وأصبح من الصعب وضع تعريف موحد ودقيق يتفق عليه جميع العلماء. ثانياً: لقد زاد من صعوبة وضع هذا التعريف حقيقة تعدد الأديان وكثرتها؛ بحيث أصبح من المتعذر وضع تعريف شامل لكل هذه الأديان التي قد تختلف في ماهيتها وفلسفتها وعلاقتها مع أتباعها، أضف إلى ذلك أن هناك اختلافاً كبيراً في فهم الدين وتأويله بين أتباع الديانات المختلفة، هذا الاختلاف قد نراه في حقيقة الاختلاف بين الأديان القديمة والأديان الحديثة في هذا الشأن، أو بين أتباع الديانات التوحيدية والأديان غير السماوية؛ بل إن هناك اختلافاً في هذا التأويل قد نراه بين أتباع الدين الواحد بحسب فهمهم للدين نفسه واستيعابهم لنظرتهم للحياة بشكل عام، وأحياناً نجد أن مفهوم الدين قد يتغير لدى الإنسان الواحد باختلاف مراحل حياته والتغيرات التي تطرأ على شخصيته (7)؛ لذلك يصعب وضع تعريف للدين يتفق عليه الجميع.

وعلى الرغم من هذا حاول العلماء وضع بعض التعريفات للدين من الناحية الاصطلاحية، حيث يرى وليم جيمس William James أن:

Religion is the feelings, acts, and experiences of individual men in their solitude, so far as they apprehend themselves to stand in relation to whatever they may consider the divine⁽⁸⁾.

الدين هو تلك الأحاسيس والأفعال والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم، وما تقود إليه من فهم هؤلاء الأفراد بارتباطهم بنوع من العلاقة، يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلهاً.

لكن وليم جيمس - كما نرى في هذا التعريف - قد جانبه الصواب حينما نظر إلى الدين على أنه مسألة شخصية تتعلق قيمتها بالدور الذي تؤديه في حياة معتنقيها؛ فهو يرى أنه حينما يؤدي الدين دوراً إيجابياً في حياة معتنقيه، فهو دين صحيح (valid)، وهو بتركيزه على الفرد في العلاقة الدينية لا يختلف عن غيره

من مفكري عصر التنوير الذين لا يرون أن هناك صدقاً جماعياً يتجاوز حدود الفردية⁽⁹⁾.

هذا، ويرى فريزر أن الدين: "هو التزلف والتقرب إلى القوى العليا التي تفوق الإنسان والتي يعتقد أنها توجه سير الطبيعة والحياة البشرية وتتحكم فيها"⁽¹⁰⁾، وهذا التعريف يكاد يتطابق مع تعريف المنقوش التي تعرف الدين بأنه: "الإيمان بقوى خارقة تكون قدرتها فوق قوى الطبيعة والبشر، تؤثر في حياة الكون، فتدير الطبيعة، وتسير حياة الإنسان"⁽¹¹⁾، فالدين - بحسب هذا التعريف - يستلزم الإقرار بوجود قوى عليا، لديها من القوة والقدرة ما يفوق ما لدى الإنسان، ونظراً لأن هذه القوى هي التي تدير الطبيعة، وتتحكم فيها فلا بد من إرضائها لتسهيل حياة الإنسان؛ ولكن يعاب على هذا التعريف عدم تجاوز حدود الحياة الدنيا، فكأن الدين بما فيه من إيمان بقوى عليا لا يمت للآخرة بصلة، هذا، بالإضافة إلى أن فكرة الألوهية التي بني عليها هذا التعريف غير موجودة في بعض الأديان كالديانة البوذية⁽¹²⁾.

ونظراً لأن كلمة الدين أطلقت في القرآن الكريم على الإسلام وعلى الأديان الوثنية التي كانت سائدة قبله على حد سواء، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾⁽¹³⁾، كما شملت أيضاً الديانتين التوحيديتين: اليهودية والنصرانية حيث يقول تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾⁽¹⁴⁾، فإننا سنعرف الدين في هذه الدراسة تعريفاً يشمل كل الأديان التي عرفها سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولا تخرج هذه الأديان عن كونها نوعاً من اثنين: إما أديان سماوية وإما أديان وضعية، وعليه فإننا نقصد بالدين: "تلك التعاليم والأوامر والنواهي وماتبني عليه من أساس عقائدي، عاش بموجبها الإنسان العربي القديم، سواء كانت هذه التعاليم بما

فيها من أوامر ونواه قد جاءت من الله إلى رسول من الرسل عن طريق الوحي وأمر بتبليغها (الدين السماوي)، أم أنها كانت فقط من وضع بعض البشر الذين رأوا أهمية تطبيقها في أممهم، وقد يتم تطبيق هذه المبادئ تحت مظلة إله معين أو عدة آلهة (الدين الوضعي) .

المبحث الثاني - تطور الفكر الديني

أولاً - تطور الفكر الديني: رؤية نقدية

إذا كان أفلاطون قد عرف الإنسان بأنه كائن اجتماعي بطبعه، فإننا نستطيع تعريفه بأنه كائن ديني بطبعه أيضاً، فالحس الديني يعتبر حساً فطرياً لدى الإنسان، يقول المؤرخ اليوناني بلوتارخ: "من الممكن أن نرى مدناً بلا أسوار، ولا ملوك، ولا ثروة، ولا آداب، ولا مسارح، ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد ولا يمارس أهلها العبادة"⁽¹⁵⁾. ويقول أرنولد تونبي: "إن جوهر الدين ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها؛ فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية"⁽¹⁶⁾.

وقد انقسم العلماء حول الأصل في الدين أهو التوحيد أم الشرك؛ حيث يرى البعض أن الفكر الديني كان في بدايته مشركاً ثم "تطور" حتى وصل إلى قمة الهرم التطوري المتمثل في التوحيد. هذا، ويرى الباحث أن مثل هذه النظرة تعتبر نظرة غير صحيحة؛ حيث إن الأصل في الدين هو التوحيد، لكن هذا الفكر الوحداني انتقل - للعديد من الأسباب - إلى مرحلة يسودها التعقيد والتشابك، فأفرزت هذه المرحلة فكرة تعدد الإله الواحد من ناحية، وفكرة موجودات عليا بجانب هذا الإله من ناحية أخرى، ولقد أثرت هذه النظرة في الكثير من الكتابات التي ألقت عن الدين بشكل عام، لذلك بالنظر إلى الكثير مما كتب عن الفكر الديني لدى العرب قبل الإسلام، نجد أن هذه الكتابات تنطلق من الإقرار - وإن كان في أغلب الأحيان ضمناً - بأن الأصل في عبادة العرب كانت الوثنية، ومع مرور الوقت واقترب ظهور الإسلام كان هناك اتجاه نحو الوحدانية، وليس العكس.

ويمكن أن نرى مثل هذا التصور من خلال ثلاثة أمور؛ الأول: القول صراحة بأن الفكر الديني بشكل عام أو الفكر الديني لدى العرب قبل الإسلام قد تدرج في خط تصاعدي من الشرك إلى التوحيد، يقول جواد علي: "وتختلف نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإله)، التي تقابل Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الإنكليزية، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجة تقدمها"⁽¹⁷⁾، فهنا ينص جواد علي صراحة على التطور التصاعدي في الفكر الديني من المرحلة البسيطة إلى أكثر المراحل نضجاً أو تعقيداً.

الأمر الثاني الذي نرى من خلاله الاعتقاد بالتدرج نحو التوحيد هو: استخدام مفردة "التطور" (Development) عند الحديث عن الحياة الدينية في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ فكلمة "تطور" تفيد معنى انتقال هذا الفكر من مرحلة بدائية عبت فيها قوى الطبيعة والأوثان إلى مرحلة متقدمة وناضجة ظهر خلالها التوحيد؛ فقد جاء في "لسان العرب": "الطور هو التارة - الحال - الحد بين الشيئين، والجمع أطوار، والأطوار هي الحالات المختلفة والتارات والحدود واحدها طور"⁽¹⁸⁾، وعليه فإن كلمة تطور تعني الانتقال من شيء أولي (بدائي) إلى شيء آخر أعلى درجة، ويمكن أن نرى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾⁽¹⁹⁾؛ حيث ذكر المفسرون أن المقصود بكلمة (أطواراً): "جمع طور وهو الحال؛ فطوراً نطفة وطوراً علقة إلى تمام خلق الإنسان"⁽²⁰⁾، يقول ابن منظور في ذلك: "خلقكم أطواراً: أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً"⁽²¹⁾.

وتظهر فكرة التطور هذا بوضوح في الكلمة الإنجليزية المستخدمة في مثل هذا النطاق (evolution)؛ حيث جاء تعريف هذه الكلمة في قاموس أكسفورد الإنجليزي على النحو التالي:

- 1 - a gradual development, esp to a more complex form: the evolution of modern art.
- 2 - any process of formation or growth; development: the evolution

of a language; the < <http://dictionary.reference.com/browse/the> > evolution of the airplane.

- 3 - a product of such development; something evolved < <http://dictionary.reference.com/browse/evolve> > : The exploration of space < <http://dictionary.reference.com/browse/space> > is the evolution of decades of research.
- 4 - Biology. change in the gene pool of a population < <http://dictionary.reference.com/browse/population> > from generation to generation by such processes as natural selection.

1 - التطور التدريجي خصوصاً نحو حالة أكثر تقدماً وتعقيداً. (مثال: تطور الفن الحديث).

2 - أي حركة تكون أو نمو "تطور". (مثال: تطور اللغة، تطور صناعة الطائرة).

3 - نتاج مثل هذا التطور (شيء يتطور). اكتشاف الفضاء هو نتاج عقود من البحث.

4 - (في علم الأحياء) التغير في جينات المجتمع من جيل إلى آخر، ويكون هذا التغير عن طريق الانتقاء الطبيعي.

وهكذا - كما نرى من كل هذه التعريفات - فإن كلمة "تطور" - عند استخدامها للحديث عن الفكر الديني بشكل عام أو الفكر الديني لدى عرب الجزيرة بشكل خاص - توحى بأن الأصل في هذا الفكر الوثنية لينتقل بعد مراحل من التقدم إلى التوحيد، ولاسيما أن التوحيد يعتبر مرحلة أكثر تعقيداً من مرحلة عبادة قوى الطبيعة ومرحلة الوثنية.

الأمر الثالث الذي نرى من خلاله هذا التصور عن الفكر الديني لدى العرب قبل الإسلام هو: تراتبية المادة العلمية حين الكتابة في هذا الموضوع؛ حيث تكون البداية في أغلب الكتابات بالحديث عن عبادة قوى الطبيعة ثم الوثنية في الجزيرة العربية من ناحية موطنها وأصنامها ومعابدها، ثم يكون الانتقال بعد ذلك إلى الحديث عن الديانات السماوية التي دخلت الجزيرة العربية قبل الإسلام

ودورها في خلق تيار التوحيد في الجزيرة العربية، هذا الدور- كما ترى هذه الكتابات- كان العامل الذي سهل قبول الدعوة الإسلامية فيما بعد، حيث هيأت هذه الديانات السماوية الأرض لدين الإسلام التوحيدي هو الآخر، وفي حقيقة الأمر أن مثل هذه الكتابات قد نظرت إلى الصورة مقلوبة، كما سنرى بعد قليل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما مصدر فكرة تطور الدين في هذه الكتابات؟ من الممكن أن نحدد مصدرين لهذه الفكرة، المصدر الأول: وهو الذي تأثرت به أغلب الكتابات الغربية، ويتمثل في النظرية الدارونية؛ حيث تدور هذه الكتابات في فلك نظرية النشوء والارتقاء لدارون Theory of Natural Selection⁽²²⁾. ترى هذه النظرية أن حياة الإنسان تتجه في تطورها باتجاه التقدم الدائم ((liner evolution (development)، فتنقل من حالة البساطة إلى حالة التعقيد، حتى عقل الإنسان - بحسب هذه النظرية - لم يخلق كاملاً، وإنما جاء نضجه - بما فيه الوصول إلى الدين - نتيجة عملية التطور هذه، أو كما تسميه هذه النظرية الارتقاء (The Evolution)، ومن هنا فالدين - كما يتصور هؤلاء الكتاب - يعتبر شيئاً طارئاً في حياة الإنسان جاء نتيجة استجابة الفكر الإنساني بعد تطوره لظرف معين في نطاق زمني ومكاني معين، وعليه - كما يرون - بدأ الإنسان في مراحل تطوره الأولى بعبادة بعض جوانب الطبيعة المحيطة به كالشجر والحجر؛ حيث كان الإنسان يرى أن هذه الأشياء تحمل أرواحاً أسوة بالأرواح البشرية، وهذه هي العبادة المعروفة في الفكر الديني بحيوية المادة (animism)، ثم انتقل الإنسان - كما يرى هؤلاء الكتاب - إلى عبادة الكواكب قبل أن يستقر على عبادة الشمس كأكبر هذه الكواكب وأهمها للحياة الزراعية، ثم بعد هذا الخط الطويل من تطور الفكر الديني يصل الإنسان إلى عبادة خالق واحد، وهذا هو التوحيد⁽²³⁾. وخير من يجسد هذا التيار التطوري جيمس فريزر James Frazer في كتابه (الغصن الذهبي) The Golden Bough.

هذه النظرية التطورية تم انتقادها من قبل "المدرسة الانتشارية"، التي تزعمها مؤسس علم الأنثروبولوجيا الأمريكية فرانز بواس؛ حيث ترى هذه المدرسة وجود العديد من الدوائر الثقافية والمجموعات الجغرافية التي تتشابه في

العديد من السمات الثقافية، هذه السمات الثقافية تنتقل من مجال إلى آخر داخل الدائرة الثقافية نفسها من ناحية وبين الدوائر الثقافية من ناحية أخرى⁽²⁴⁾.

أما المصدر الثاني لفكرة التطور في الفكر الديني الذي أثر في بعض الكتاب المسلمين فهو ما ورد في القرآن الكريم في سورة الأنعام عن إبراهيم الخليل - عليه السلام -؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِمَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨﴾⁽²⁵⁾.

ويرى هؤلاء الكتاب أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن بداية من الموحدين؛ حيث بدأ بعبادة أحد الكواكب الذي لم يسمه القرآن الكريم ولكنه هجر هذا المعبود عندما رآه يغيب، فانتقل بعدها إلى عبادة القمر الذي لم يلبث أن غاب هو الآخر، حينها وجه إبراهيم وجهه شطر الشمس فهي أكبر الكواكب، ولكنها غابت أيضاً، حينها وصل إبراهيم إلى مرحلة التوحيد.

لكن مثل هذا الرأي يوجه له النقد على النحو التالي:

- أن اتهام إبراهيم - عليه السلام - على هذا الوجه - انطلاقاً من أنه عبد الكوكب المذكور ثم تراجع عنه، وتوجه إلى عبادة القمر ولكنه لم يستمر، ثم رأى أن الشمس هي الإله ولكنه استغرب أفولها ليتجه بعد ذلك إلى التوحيد ينافي عصمة الأنبياء⁽²⁶⁾. فإبراهيم تدرج مع قومه هذا التدرج من أجل تعرية تفكيرهم الساذج بأنهم يعبدون هذه الكواكب التي تظهر على الكون ثم ما تلبث أن تغيب؛ حيث إن هذا الغياب لهو أكبر دليل على أن هذه الكواكب مسيرة بيد الخالق، ويدل على ذلك المحاجة التي تمت بينه وبين قومه، حيث يقول تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ

قَالَ أَمْحَجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٨﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمُ اشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾. فلو كان عدم التوحيد فردياً بين إبراهيم ونفسه لما كان هناك داعٍ لمحاكاة قومه.

- بالنظر إلى بعض الآيات في القرآن الكريم نجد أنها تنفي الشرك عن إبراهيم، ففي الآية (79) من سورة الأنعام نرى إبراهيم - عليه السلام - يتبرأ من الشرك وأهله ويعلن عبادته لله وحده، حيث يقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٧٩﴾. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٨﴾، ويقول تعالى على لسان الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٢٩﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، وكل هذا يدل على أن إبراهيم لم يكن مشركاً.

- لو كان زعمهم بالفعل حول اختيار إبراهيم إلهه فهل من المعقول أن ينصرف عن عبادة كل إله من هذه الآلهة التي اختارها بهذه السرعة! حيث نعلم أنه صرف نظره عن الكوكب الذي اختاره عندما أقل هذا الكوكب، الأمر ذاته تكرر مع القمر والشمس، ولنا أن نسأل أنفسنا كم من الوقت تستغرق هذه الكواكب لتغيب، إنها مسألة ساعات فقط، هذه السرعة التي كان يترك بها إبراهيم عبادة هذه الكواكب لدليل على أنه كان يخاطب عقول قومه مبيناً لها قصورها حين تعبد هذه الكواكب التي تظهر وتختفي.

- إن آدم - عليه السلام - هو أول من خلق من البشر وهو موحد، ولم يكن مشركاً. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽³¹⁾، وتؤكد التوراة هذا الشيء (انظر: التكوين، 1:1، 27، 2: 16-17، 4: 26، 5:1). ولو كان هناك تدرج في العبادة من الشرك إلى التوحيد لكان الأولى أن يبدأ بآدم عليه السلام⁽³²⁾.

- يعتبر التوحيد من الأشياء الأصيلة في حياة الإنسان؛ فهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽³³⁾. يقول صاحب تفسير الجلالين "واذكر (إذ) حين (أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم) بدل اشتغال مما قبله بإعادة الجار (ذريتهم) بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلًا بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان يوم عرفة ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلاً (وأشهدهم على أنفسهم) قال (ألسنت بربكم قالوا بلى) أنت ربنا (شهدنا) بذلك والإشهاد لـ (أن) لا (يقولوا) بالياء والتاء في الموضوعين، أي الكفار (يوم القيامة إنا كنا عن هذا) التوحيد (غافلين) لا نعرفه".

وبالإضافة إلى ما ذكر أعلاه، يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾⁽³⁴⁾، والمقصود أنهم كانوا على التوحيد، ولكنهم بعد ذلك اختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: "نعم، مكلم" قال: قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال: "عشرة قرون"⁽³⁵⁾. وهناك حديث ابن عباس الذي

جاء فيه فيما روى عنه ابن جرير بسنده: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" (36).

من كل ذلك يتبين أن فكرة التطور عند دراسة الفكر الديني سواء في الجزيرة العربية قبل الإسلام أو في النطاق الأشمل وهو الشرق الأدنى القديم فكرة مضللة؛ حيث إن مفردة تطور تعني الانتقال من مرحلة بدائية إلى مرحلة أكثر إتقاناً ونضجاً، وهذا ما لا ينطبق على دراسة الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ إذ إن الأصل في الدين التوحيد.

لذلك فقد وقع بعض الباحثين في الخطأ عندما رأى أن هناك تطوراً في الفكر الديني أفضى فيما بعد ذلك إلى التوحيد؛ فهذا العقاد - رحمه الله - يقول في كتابه "الله": "ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات... وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى". ويواصل العقاد: "فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، وعلى أنها تبحث عن محال، وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد" (37)، ويقول العقاد في مكان آخر: "إلا أن المشاهدات التي أحصاها علماء المقابلة قد تنوفاً كلها إلى نتيجة يجمعون عليها، وهي: أن الإيمان بالآرواح شائع في جميع الأمم البدائية، وأن الأمم التي تجاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص، وفي طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة، وأن عبادة الأسلاف تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسب كل طور منها بحسب نصيبه من العلم والمدنية. أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى... " (38). من كل هذا نرى العقاد يقرر أن الإنسان الأول كان همجياً

مشركاً وقد احتاج هذا الإنسان وقتاً طويلاً تدرج فيه فكره الديني تصاعدياً حتى تعرف التوحيد، وهذا - لعمرى - يخالف الحقيقة الدينية والحقيقة التاريخية؛ فأول إنسان تم خلقه هو آدم - عليه السلام - وكان موحدًا، كما رأينا من قبل، والعقد يمثل هذا القول يدور في فلك النظرية التطورية للدين مع عدم تركيزه على أي من مذاهبها الثلاثة المعروفة الحيوي والطبيعي والطوطمي.

فالمذهب الحيوي (animisim) يرى أن أقدم الأديان عبادة الأرواح حين علم الإنسان في فترة من فترات حياته أن الروح بإمكانها مغادرة الجسد والنزوح بعيداً، هذا النزوح الذي يتسبب في فناء الجسد جعل الإنسان يشعر بأن هذه الروح قادرة على النفع والضرر، من هنا تقرب الإنسان إلى هذه الروح عن طريق الأضاحي والقرابين والطقوس المختلفة طلباً لمنفعتها واتقاء لشرها⁽³⁹⁾. هذا، ويدعي أصحاب المذهب الطبيعي أن أول عبادة عرفها الإنسان هي عبادة الظواهر الطبيعية المختلفة والمحيطية بالإنسان في حياته اليومية⁽⁴⁰⁾، ومرد اعتقاد هذا الفريق أن الدين لا يمكن أن يبدأ دون تجربة حسية يستشعرها الإنسان عن طريق حواسه. أما من قال بالمذهب الطوطمي فيرى أن عبادة الطوطم هي العبادة الأولى التي مارسها الإنسان؛ حيث ترتبط هذه العبادة بالقبيلة التي تعتبر أول نظام اجتماعي بشري - وربما أبسطه - على الإطلاق، وغالباً ما يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً وإن كان هذا لا يمنع أن يكون مظهراً من مظاهر الطبيعة⁽⁴¹⁾.

لكن العقد في مكان آخر وكتاب آخر يؤكد المذهب الطبيعي التطوري؛ حيث يقول العقد في كتابه "إبراهيم": "وقد ارتفع الإنسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، وحين أصبحت حاجته إلى المعبود شيئاً أرفع من مطالب الأبدان وضرورات الغرائز والطباع"⁽⁴²⁾؛ فمثل هذا القول يوحي بأن عبادة الطبيعة هي الأصل في عبادة الإنسان. ولكن هذا الأخير نجح في الارتقاء إلى عبادة ما فوق الطبيعة، حينما أصبح لدى الإنسان حاجة روحية للمعبود ترتقي فوق حاجات الإنسان المادية.

كما يقول تحت عنوان التوحيد: "والتوحيد كذلك توحيدان: توحيد

الإيمان بإله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أرباباً آخرين، وتوحيد الإيمان بإله واحد لا إله غيره. ولم تعرف أمة قديمة ترفت إلى الإيمان بالوحدانية على هذا المعنى غير الأمة المصرية⁽⁴³⁾، فعبادة (آتون) التي دعا إليها إخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرناً كانت غاية التنزيه في عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون⁽⁴⁴⁾، كما يقول: "وما علمناه اليوم من مقابلات الأديان أن التوحيد جاء بعد تعدد الأرباب وتميز واحد منها، وأن أهل بابل خاصة كانوا يرون في قصة الخليقة أن الله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء"⁽⁴⁵⁾.

مثل هذا القول من الممكن أن نراه لدى آخرين أيضاً مثل فيليب حتى؛ حيث يقول في كتابه "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين": "إن ديانة كنعان القديمة وبقية العالم السامي باعتبار أنها الدرجة الأولى التي تقوم على عبادة الطبيعة..."⁽⁴⁶⁾، وهنا نرى كيف ينظر فيليب حتى إلى التطور في الفكر الديني؛ فهو يرى أن الديانة السامية المبكرة كما هي في كنعان كانت مرتبطة بعبادة قوى الطبيعة؛ لأنها تمثل الدرجة الأولى في سلم تطور الفكر الديني.

وفي كلام مشابه يقول الناصوري عند حديثه عن "تطور الفكر الديني الإنساني أثناء العصر التاريخي في منطقة الشرق الأدنى القديم": "وقد وصل الإنسان في تلك المنطقة إلى مدى بعيد في محاولة الاستقرار الفكري، وعمق في ذلك المجال بدرجة ملحوظة تصل إلى محاولته الاقتراب من الوصول إلى الوحدانية؛ ولكنه رغم كل ذلك انحرف عن الطريق السوي ودخل في متاهات فكرية غير متكاملة إلى أن جاء الإرشاد الرباني في الكتب المقدسة"⁽⁴⁷⁾. وهنا يصور الناصوري أن الاقتراب من الوحدانية جاء بعد رحلة طويلة من التطور في الفكر الديني؛ لكن هذا الفكر - مع هذا - لم ينجح في الوصول إلى الوحدانية حتى أنزل الله الكتب السماوية. لكن أين هذا التصوير من حديث ابن عباس الذي ذكر فيه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الناس كانوا على التوحيد منذ عهد آدم؛ أي قبل إنزال الكتب السماوية. واستمروا كذلك حتى ظهر الشرك في قوم نوح.

ثانياً- نماذج لبعض الكتابات التي تؤمن بتطور الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام

مثل هذه النظرة التطورية للفكر الديني بشكل عام والفكر الديني في منطقة الشرق الأدنى القديم بشكل خاص، نراها أيضاً في بعض الكتابات التي تناولت تاريخ هذا الفكر في الجزيرة العربية قبل الإسلام، والسبب في ذلك هو إيمان البعض بأن الجزيرة العربية من خلال الديانات التي قامت فيها تؤكد هذه النظرية التطورية؛ حيث عرفت الجزيرة العربية عبادة الأشياء المادية كالأشجار والأحجار، ثم عرفت عبادة الكواكب ولاسيما في جزئها الجنوبي، ثم ظهرت عبادة الشمس ليلها ظهوراً التوحيد⁽⁴⁸⁾.

وهذا ينطبق تماماً على ما ذكره لطفي عبد الوهاب يحيى في كتابه "العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري"؛ حيث يرى المؤلف أنه كان هناك تطور في الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ فيقول: "والظاهرة التي نلاحظها على تطور العقائد الدينية في شبه الجزيرة العربية هي أن المنطقة عرفت عدداً من مراحل التطور الديني في العصور السابقة على الإسلام"⁽⁴⁹⁾، ثم نجده يتحدث عن هذا التطور في أربع مراحل متتابعة:

1 - عبادة الأشياء المادية (ويقصد بها مظاهر الطبيعة).

2 - عبادة الكواكب.

3 - عبادة الشمس (شمس).

4 - مرحلة التوحيد.

ويرى أن المرحلة الأخيرة جاءت بتأثير من الديانتين التوحيديتين: اليهودية والنصرانية.

ويقول بافقيه: "وتظهر خلال هذا العصر تباشير تحولات في العقيدة الدينية عليها في البداية مسحة توحيدية غامضة تبدو متذبذبة بين الديانتين السماويتين المسيحية واليهودية، ولعلها كانت من قبل الصيغة التوفيقية، أو لعلها كانت تعبيراً عن مذهب توحيدي جديد شبيه بمذهب الأحناف وإرهاصاً له،

وكلها - على أية حال - أمور ناتجة عن وجود أتباع تلك الديانات في أنحاء الجزيرة بين فارين بدينهم من اضطهاد أو مبشرين به، وخاصة بعد انتصار المسيحية في بيزنطة في ذلك العصر. وتظهر دلائل ذلك التحول بتوقف الملوك وأتباعهم عن التقرب إلى الآلهة الوثنية وخاصة آلهة بعل أوم في معبده المعروف بمحرم بلقيس والابتهاال والتعظيم عوضاً عن ذلك للإله رب السماء في أقدم النقوش المعروفة ثم رب السماء والأرض، وأخيراً في القرن السادس الرحمان (رح م ن) الذي يرد في النصوص اليهودية اليمنية كما يرد في بعض النصوص المسيحية⁽⁵⁰⁾. لذلك لا غرابة أن نجد كاتباً غريباً مثل هوي لاند يقول:

"Up until about the fourth century AD almost the inhabitants of Arabia were polytheists"⁽⁵¹⁾.

حتى القرن الرابع الميلادي كان غالبية سكان الجزيرة مشركين .

لكن حقيقة الأمر أن التوحيد كان موجوداً في الجزيرة العربية كما كان في بعض مناطق الشرق، ولا يمكن ربط وجوده باليهودية والنصرانية؛ بل إن الدراسات الحديثة للدين في الشرق اليوناني والروماني تؤكد استقلالية التوحيد عن هاتين الديانتين اللتين نشأتا من هذا التوحيد وليس العكس، يقول أنانسيادي وفريد: "نشأة فكرة هذا السمينار من عدم رضانا ليس فقط عن الكتابات العامة؛ بل عن كتابات المتخصصين التي تختزل التوحيد في الشرق اليوناني والروماني في اليهودية والنصرانية اللتين يعتقد أنهما جاءتا لتحلا محل الكثير من الوثنيات. على العكس كان التوحيد منتشرًا في هذه المنطقة مستقلاً عن هاتين الديانتين"⁽⁵²⁾.

لكل هذا عندما نتناول الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام، المفترض أن ننتقل من مناقشة الجانب التوحيدي في هذا الفكر؛ كونه الأساس في الفكر الديني، ثم ننتقل بعد ذلك إلى مراحل الانتكاسات التي مرت بهذا الفكر من وثنية وغيرها، لنصل في النهاية إلى كيف ساهمت الديانات السماوية التي دخلت الجزيرة العربية من يهودية ونصرانية في إنعاش تيار التوحيد من جديد، لتكون الجزيرة العربية مهية لاستقبال خاتم الأديان في مطلع القرن السابع الميلادي. فالتوحيد قد لا يظهر في النصوص المدونة التي يغلب عليها

طابع الشرك لكن هذا لا يعني عدم وجوده، ويدل على استمرار التوحيد قول محمود عرفة محمود: "كان هناك طائفة من العرب، أحجمت عن الوثنية والصابئة والمجوسية وغيرها من الديانات التي انتشرت في بلاد العرب، واتخذت من عقيدة إبراهيم الخليل - عليه السلام - ديناً لها، وهو الدين الذي يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد. وقد عرف هؤلاء بالحنفاء لقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾⁽⁵³⁾... وكانوا يقضون أيامهم ولياليهم في تأمل الكون الذي يعيشون فيه، وقد تجنبوا فعل المنكرات التي اعتاد العرب عليها وتفشت في مجتمعهم ومنها شرب الخمر ولعب الميسر وغيرها، ونصحوا الناس بالابتعاد عن الوثنية والتقرب إلى الله. فهم مسلمون كغيرهم من المؤمنين الذين عبدوا الله على حق منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها و ما عليها " ⁽⁵⁴⁾.

المبحث الثالث - التوحيد (Monotheism)

يخبرنا القرآن الكريم بأن الناس قد فطروا على الدين والتوحيد؛ حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَدِينُ الْقِيمِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁵⁾. وإذا رجعنا إلى التوراة نجدها توافق كل ذلك، حيث جاء في سفر التكوين ما يؤكد وجود الله - سبحانه وتعالى - قبل أي شيء آخر (1:1):

בְּרֵאשִׁית, בָּרָא אֱלֹהִים, אֶת הַשָּׁמַיִם, וְאֶת הָאָרֶץ. וְהָאָרֶץ,
הָיְתָה תֵהוֹ וְבָהוּ, וְחָשֶׁךְ, עַל-פְּנֵי תְהוֹם; וְרוּחַ אֱלֹהִים,
מְרַחֶפֶת עַל-פְּנֵי הַמַּיִם

ففي البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض مشوشة وجذباء وتغطي الظلمة وجه المياه، وكان روح الله رفرف على المياه.

كما جاء في التوراة ما يؤكد أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد دعوا جميعهم إلى التوحيد (التكوين : 12-50). ومن ذلك نقراً (6: 12):

וַיַּעֲבֹר אַבְרָם, בְּאַרְצָה, עַד מְקוֹם שָׁכֵם, עַד אֵלוֹן מוֹרֶה;
וְהַכְנִיעָנִי, אֲזִי בְּאַרְצָה. יְדֹ, וַיֵּרָא יְהוָה, אֶל-אַבְרָם, וַיֹּאמֶר,
לְזָרְעֲךָ אֵת-הָאָרֶץ הַזֹּאת; וַיָּבֹן שָׁם מִזְבֵּחַ, לַיהוָה
הַנִּרְאָה אֵלָיו. יְדֹ, וַיַּעֲתֶק מִשָּׁם הָהָרָה, מִקְדָּשׁ לְבֵית-אֵל--
וַיֵּט אֶהְלָה; בֵּית-אֵל מִיָּם, וְהָעֵי מִקְדָּשׁ, וַיָּבֹן-שָׁם מִזְבֵּחַ
לַיהוָה, וַיִּקְרָא בְּשֵׁם יְהוָה. יְדֹ, וַיִּסַּע אַבְרָם, הַלּוֹךְ וְנִסּוֹעַ
הַנִּגְבָּה.

فأخذ أبرام (إبراهيم) ينتقل في الأرض حتى وصل إلى موضع شكيم إلى سهل مؤرة. وكان الكنعانيون يسكنون في تلك الأرض. وظهر الرب لإبرام وقال له: "أعط هذه الأرض لذريتك"، فبنى أبرام مذبحاً للرب، وانتقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيامه بين بيت إيل غرباً وعائى شرقاً، وشيد هناك مذبحاً للرب ودعا باسمه. ثم تابع أبرام رحلته باتجاه الجنوب.

ومن هنا فإن الحيرة التي وقع فيها الكثير من العلماء - ولاسيما غير المسلمين منهم - حول أصل الدين تعتبر حيرة غير مبررة. يقول وليام جود William J. Goode في كتابه Religion Among the Primitives:

"How, under what conditions, [humans] began to believe in divine beings nearly a million years ago must remain sheer speculation"⁽⁵⁶⁾.

"كيف؟ وتحت أي ظروف وصل الإنسان إلى الإيمان بالمقدس قبل ملايين السنين؟" سيظل مجرد تكهنات.

ولقد أثبتت الأبحاث التي قام بها بعض العلماء المتخصصين في التاريخ القديم والدراسات السامية هذه الحقيقة القرآنية التي تثبت أن الأصل في دين الإنسان التوحيد. فلانج (Lang) يرى أن فكرة "العلية" وهي الفكرة التي تقول بضرورة وجود صانع وخالق لهذا الكون، وأن هذه القوة الخالقة هي فوق مستوى البشر، وهي توجد بالفطرة مع كل إنسان، لذلك نجد القبائل البدائية

تؤمن بسيد لهذا الكون، ويظهر هذا العنصر الإيماني عند القبائل البدائية ظاهراً
نقياً قبل أن تلوثه الأساطير المختلفة⁽⁵⁷⁾.

ولقد قام شرودر بأبحاث على العديد من القبائل البدائية ووجد هذه القبائل
تؤمن بإله خالق لهذا الكون، وهي النتيجة ذاتها التي توصل إليها كرويز خلال
أبحاثه على القبائل الهندية في كاليفورنيا؛ حيث وجد فكرة الإيمان بإله خير
سام، بيده القوة جميعها وتؤول إليه كل الأقدار واضحة جلية، وقد وجد شمت
هذه الفكرة بين أقزام إفريقيا الذين يعتبرون أقدم الأجناس البشرية، كما وجد
فكرة الوحداية عند معظم القبائل الزنجية⁽⁵⁸⁾.

وها هو العالم الفرنسي رينان يرى في كتابيه المشهورين *Histoire générale*
Études d'histoire et système comparé des langues sémitiques (1855)
(1886): *religieuse* أن الشعوب السامية شعوب موحدة في الأصل، كما تدل
الدراسات اللغوية المقارنة للفظ (إل) و(إيل) في مختلف اللغات السامية التي
انتشرت في شتى أنحاء الشرق الأدنى القديم⁽⁵⁹⁾، فالإله "إل" هو أقدم الآلهة
السامية على الإطلاق؛ حيث تم ذكر هذا الإله في النقوش الأكادية منذ الألف
الثالث قبل الميلاد، ويعتبر هذا الإله إلهاً مشتركاً لجميع الشعوب السامية⁽⁶⁰⁾.
ونحن نعلم أن الإله "إيل" هو الإله الذي دعا إليه إبراهيم - عليه السلام -
بحسب رواية التوراة، ودعوة إبراهيم الخليل - عليه السلام - كانت في القرن
التاسع عشر قبل الميلاد، وكانت هذه الدعوة التوحيدية عامة، بدليل أن إبراهيم
انتقل من حران إلى الجزيرة العربية بهذه الدعوة، و"إيل" هو نفس الإله الذي
تكلم مع هاجر، والإله إيل في التوراة هو الإله الأوحد الحقيقي⁽⁶¹⁾، ويستخدم
اسمه أحياناً مع لقب من ألقاب الله مثل (إيل شداي)⁽⁶²⁾ وتعني الله القدير،
و(إيل عليون) وتعني الله العلي، وكما كان الإله إيل معروفاً عند الكنعانيين⁽⁶³⁾
والآراميين كان معروفاً أيضاً في الجزيرة العربية، حيث أضيفت الكثير من
الأسماء الشخصية إليه سواء في جنوب الجزيرة أو شمالها أو غربها، فبالنظر إلى
نقوش الجزيرة العربية نجد هناك حضوراً واضحاً لهذا الإله؛ مما يدل على وجود
هذه الديانة التوحيدية التي دعا إليها إبراهيم الخليل، عليه السلام، فلو نظرنا إلى

النقوش المعينية لوجدنا أسماء بعض ملوك معين مضافة إلى اسم هذا الإله مثل "وقه-إيل" و "يصدق-إيل" الذي حكم نحو 201 ق.م. الأمر ذاته يتكرر في النقوش السبئية؛ حيث نجد "يدع-إيل" و "كرب-إيل" و "وهب-إيل"، وكذلك الأمر في نقوش الجزيرة العربية⁽⁶⁴⁾، وعلى ما يبدو، فإن الإله إيل هو "الله" الذي جاء الإسلام داعياً إليه، فدعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - هي امتداد لدعوة إبراهيم، عليه السلام⁽⁶⁵⁾، وإبراهيم وهاجر وإسماعيل - عليهم السلام - قد جاؤوا بمفهوم الحنيفية إلى مكة، التي تعني الإيمان بهذا الإله الأوحد، ولو نظرنا إلى أسماء الملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل لوجدناها كلها قد أضيفت إلى هذا الإله⁽⁶⁶⁾. قال الأصمعي في معنى جبرائيل وميكائيل: "معنى إيل الربوبية فأضيف (جبر) و(ميك) إليه، فكأن معناه عبد إيل ورجل إيل".⁽⁶⁷⁾

ويرى الباحث أن التوحيد كان هو الأساس في مكة لكنه⁽⁶⁸⁾ - على ما يبدو - تعرض للتحريف على يد الوثنية كما حصل مع كل الدعوات التوحيدية الأخرى، ويعتبر الإله "الرحمن" (رحمن) الذي ظهر في النقوش الجنوبية منذ القرن الثالث الميلادي هو الإله ذاته الذي دعا إليه إبراهيم، عليه السلام⁽⁶⁹⁾، وهو الله ذاته الذي دعا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا الشيء يؤكدده القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾⁽⁷⁰⁾. ويقول تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾⁽⁷¹⁾. ويقول - جل من قائل -: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾⁽⁷²⁾.

التيار التوحيدي في الجزيرة العربية قبل الإسلام

لعل من أهم الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الكثير من الكتاب المسلمين تصوير تاريخ العرب القديم بأنه عصر جهل وغلظة وفساد منقطع النظير، وقد يفهم الدافع وراء مثل هذا التصوير ألا وهو الرغبة في تمجيد الإسلام بأنه دين

جاء إلى منطقة مظلمة من جميع الجوانب الدينية والاجتماعية والنفسية، ولكنهم بهذا أسأؤوا إلى الإسلام دون أن يشعروا. فمثل هذا التصوير الظلامي لتاريخ العرب القديم وخلق نوع من القطيعة بينه وبين الإسلام كان وراء الإيحاء للكثير من الدارسين - ولاسيما الغربيين منهم - بأن وجه هذا المجتمع العربي القديم لم يكن يحمل من التقاسيم الجميلة ما يبشر بإمكانية خروج نبي جديد من رحم هذا المجتمع العربي ليحمل رسالة الإسلام الخالدة إلى جميع الأمم والحضارات. يقول جواد علي: "والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام، وأن تفكيرهم في ذلك منحط لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية، وهو رأي خاطئ، يفنده القرآن الكريم. وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس إلى السواد والأعراب، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكل" (73).

لقد جاء الإسلام امتداداً للرسالات السماوية السابقة، كما أقر الإسلام بعض الجوانب الدينية والاجتماعية التي كانت معروفة في المجتمع العربي القديم، ولكن أين هذا التصوير للتاريخ العربي القديم وما ترتب عليه من نظرة للإسلام بأنه يجب أن يكون ديناً منفصلاً عن البيئة العربية والدينية القديمة، أو سيئهم بأنه لم يأت بجديد من قوله - صلى الله عليه وسلم - : "إنما أتيت لأتمم مكارم الأخلاق"، حيث كان هناك الكثير من الجوانب المشرقة في حياة الإنسان العربي القديم، التي جاء المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لإتمامها، فمن الناحية الدينية كان هناك تحريم نكاح المحارم، وكانوا يحرسون على المناسك والختان وحرمة الأشهر الحرم، وكانوا يطوفون بالبيت سبعاً ويسعون بين الصفاء والمروة، وكانوا يلبون وإن كان هناك من يشرك في هذه التلبية، وكانوا يحرمون الربا والظلم؛ بل كانت عبادة "الله" معروفة قبل الإسلام، يقول بيترز Peters:

The cult of the deity termed simply the god (Allah, al-ilah) was known throughout southern Syria and northern Arabia, and was obviously of central importance in Mecca, where the building called the Ka'ba was indisputably his house⁽⁷⁴⁾.

إن عبادة الإله المعروف بالله كانت معروفة في جنوب سورية وشمال الجزيرة العربية. وكان لهذا الإله الأهمية الكبرى في مكة؛ حيث يوجد بيته المعروف بالكعبة.

ومن الممكن أن نذكر منها على الجانب الاجتماعي حلف الفضول الذي كان أجمل صور العدل الاجتماعي لدى العرب قبل الإسلام، مثل هذا العدل الذي سينادي به الإسلام لاحقاً. وقد كان حلف الفضول دعوة لإقامة العدل الاجتماعي دون عوض؛ فهو غرم لا غنم فيه. فالهدف - كما يتضح - ليس المنفعة الشخصية، وإنما تحقيق العدل بكل ما فيه من حفظ للكرامة الإنسانية؛ حيث تم الاتفاق على رد المعتدي ونصرة المظلوم، وقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لقد شهدت في بيت عبدالله بن جدعان حلف الفضول، ما لو دعيت إليه اليوم لأجبت، وما أحب أن لي به حمر النعم⁽⁷⁵⁾. يقول الزبير بن عبد المطلب في هذا الحلف:

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا ألا يقيم بطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعتز⁽⁷⁶⁾ فيهم سالم⁽⁷⁷⁾

وعليه ينبغي ألا نبالغ في التجني على التاريخ العربي القديم؛ لأننا بهذه الطريقة نجعل الدعوة الإسلامية وظهورها في هذه البيئة العربية قبل الإسلام أشبه ما تكون بزهرة جميلة نبتت في بيئة فاسدة، وفي هذا - لعمرى - تجن على الدعوة الإسلامية ذاتها، وتجن على الإنسان العربي الذي اصطفاه الحق تبارك وتعالى لحمل رسالة الإسلام الخالدة إلى شتى أصقاع الأرض، ولعل أجمل الجوانب في حياة الإنسان العربي القديم هو التوحيد الذي ظل موجوداً على الرغم من انتشار الوثنية، ومن هنا فمن الإنصاف أن نبدأ - عند الحديث عن الحياة الدينية في الجزيرة العربية - بالتوحيد؛ لأن التوحيد هو أصل الدين منذ أن خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولأن تأخير الحديث عن التوحيد والبدء بالوثنية فيه تكريس لنظرية تطور الفكر الديني من الشرك إلى التوحيد؛ الأمر الذي نقدناه بالتفصيل سابقاً.

كما شهدت الجزيرة العربية العديد من الدعوات التوحيدية على مر تاريخها القديم، لعل أهمها دعوة إبراهيم، عليه السلام؛ حيث اقترن التوحيد في الجزيرة العربية ببناء الكعبة⁽⁷⁸⁾. ويمكن أن نرى هذا في دعوة إبراهيم وإسماعيل في أثناء بناء الكعبة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽⁷⁹⁾. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽⁸⁰⁾. ولقد وصى إبراهيم - عليه السلام - أبناءه بالتوحيد. قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾⁽⁸¹⁾.

كما شهدت الجزيرة العربية العديد من الدعوات التوحيدية التي جاءت بعد إبراهيم - عليه السلام - منها دعوة صالح - عليه السلام - في شمال غرب الجزيرة، ودعوة هود - عليه السلام - في جنوب شرقها، ودعوة شعيب، عليه السلام. وعلى الرغم من صعوبة تحديد تواريخ هذه الدعوات التوحيدية فإنها كانت - بلا شك - أقدم من التوحيد الذي ظهر في القرن الرابع الميلادي؛ حيث يرى مهران أن ثمود تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، أما شعيب فيعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد⁽⁸²⁾.

وكما عرف شمال الجزيرة العربية التوحيد قبل ظهور التوحيد في النقوش في القرن الرابع الميلادي، فقد عرفه جنوبها. فدعوة هود - كما يرى البعض⁽⁸³⁾ - كانت في منطقة الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽⁸⁴⁾. ويؤكد دعوته التوحيدية⁽⁸⁵⁾ أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالِإِىَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ﴾⁽⁸⁶⁾. وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَالِإِىَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾⁽⁸⁷⁾.

كما عرفت مملكة سبأ التوحيد، كما أخبرنا القرآن الكريم. قال تعالى

مخاطباً هذه المملكة الوادعة في جنوب الجزيرة العربية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِ بٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَ بَلَدُكُمْ طَبِيبَهُ رَبُّ غَفُورٌ﴾ (88). ومن هنا فإن دعوة سليمان التوحيدية لمملكة سبأ لم تكن جديدة على هذه المملكة وشعبها بدليل عدم حاجة سليمان إلى جهد كبير لإقناعهم بها (89).

ويخبرنا القرآن أيضاً إيمان قريش بإله واحد رب السماوات والأرض، وهو الخالق المدبر لهذا الكون. يقول تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفِكُون﴾ (90). بل يتبين من هذه الآية إيمانهم بأن الشمس والقمر من مخلوقاته. وكانت حياة الجاهليين الدينية تركز على الاعتقاد بتوحيد الربوبية. فلم يكونوا جاحدين لوجود الله أو قدرته على الخلق والحياة والإماتة والثواب والعقاب... إلخ، لكن مشكلتهم كانت في التقرب إلى بعض الأصنام واتخاذها شفعاء عند الله، وبمعنى آخر نستطيع القول: إن التوحيد كان موجوداً في الفكر الديني الجاهلي وبقوة؛ لكن مكنم الخطأ كان في طريقة التعبد إلى هذا الإله الأوحده، وهذا يؤيده رأي ابن القيم الجوزية الذي قال في محضر مقارنته بين المشركين والمجوس: "ثم إن كفر عبدة الأوثان ليس أغلظ من كفر المجوس، وأي فرق بين عبدة الأوثان والنيران، بل كفر المجوس أغلظ، وعباد الأوثان كانوا يُقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق إلا الله، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقريبهم إلى الله، سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يُقَرُّون بصانعٍ للعالم، أحدهما: خالق للخير، والآخر للشر، كما تقوله المجوس، ولم يكونوا يستحلون نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وكانوا على بقايا من دين إبراهيم، صلوات الله وسلامه عليه" (91). يقول جواد علي: "وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه، هو تقربهم للأصنام والأوثان، وتقديسهم لها تقديساً جعلها في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبة الألوهية، والإسلام لا يعترف بهذه الأشياء، وهو ينكرها، ومن هنا حاربه قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائها، ومن القبائل التي كانت ترى رأيها، فهنا كان موطن الخلاف لا عقيدة الإيمان بالله" (92).

ومع كل هذا نقول إنه - بخلاف القرآن الكريم - لم تسعنا مصادرنا

التاريخية أو الأثرية بالكثير من المعلومات عن التوحيد في الجزيرة العربية قبل الإسلام، لكن هذا لا يعني عدم وجوده أو انقطاعه، وإنما يعني أن النقوش العربية: شمالها وجنوبها كانت نتاج فترة ساد فيها الشرك، ومع هذا من الممكن أن نستخلص من هذه النقوش ما يؤكد وجود التوحيد، فظهور الإله (ذو سماوي) في نقوش ممالك الجنوب منذ مطلع العصور الميلادية يدل على عبادة إله السماء (رب السماء)؛ حيث عثر في "هجر بن حميد" من أرض قتبان على نقش يعود تاريخه إلى القرن الأول الميلادي وفيه يظهر هذا الإله، وفي القرن الرابع الميلادي اختفت الإشارة إلى المعبودات الوثنية وبرز الإله ذو سماوي (ذو سماء) بشكل ملحوظ⁽⁹³⁾؛ حيث جاء في نقش (جربني بيت الأشول 2) الذي يعود تاريخه إلى عام 493 بحسب التقويم الحميري ما يلي: "مالكي كرب يهأمن وأبناءؤه أبي كرب أسعد وذراً أمر أيمن ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت استكملوا بناء قصرهم بعون معبودهم رب السماء في شهر ذو ذأوان من". مثل هذه الصيغة (رب السماء) تدل على صيغة توحيدية⁽⁹⁴⁾.

وظهر الإله المسمى (الرحمن) "رحمن"، في بعض النقوش الجنوبية وفي بعض الكتابات الشمالية، وكان عرب الجاهلية على دراية بالرحمن. حيث يقول الشنفرى:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قبض الرحمن ربي يمينها⁽⁹⁵⁾
ويقول سلامة بن جندل السعدي:

عجلتم علينا عجلتيننا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق⁽⁹⁶⁾
ويعزز معرفة عرب الجاهلية بهذا الإله نسبة بعض الجاهليين أبناءهم إليه بالعبودية؛ حيث سمو أبناءهم عبد الرحمن، كما ورد ذكر هذا الإله في تلبية قيس عيلان: "لييك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمن، أئتتك قيس عيلان، راجلها والركبان"⁽⁹⁷⁾، ويرى بعض العلماء أن الإيمان بهذا الإله إيمان عربي لم يتج من التأثير اليهودي⁽⁹⁸⁾.

وبالنظر إلى شمال الجزيرة العربية نجد أن هناك إشارات في بعض النقوش التي قد يفهم منها نوع من الإيمان بإله واحد؛ بل نجد في الشعر الجاهلي ما

يؤكد وجود التوحيد في الحجاز منذ أيام عمرو بن لحي الخزاعي؛ فعندما انتشرت عبادة الأصنام في عهد عمرو بن لحي الخزاعي وجد من العرب المعاصرين من أنكر تبنيه لعبادة الأصنام وتشجيعها. يقول شحنة بن خلف الجرهمي متحسراً على دين التوحيد الذي تعرض لتحريف على يد عمرو بن لحي الخزاعي:

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصبا
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل سيصطفي دونكم للبيت حجاباً⁽⁹⁹⁾

لكن عمرو بن لحي الخزاعي نجح - يخبرنا الخربوطلي - في إخماد أصوات الاحتجاج بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة. وهكذا استمرت قبيلة خزاعة تتولى شؤون الكعبة المشرفة وتمارس الوثنية لما يقرب من خمسة قرون⁽¹⁰⁰⁾.

وهذا التوحيد في الجزيرة العربية هو ما أكدته الأبحاث اللغوية المتخصصة، حيث ذكرنا سابقاً أن العالم الفرنسي رينان يرى في كتابيه المشهورين *Histoire générale et système comparé des langues sémitiques* (1855) و *Études d'histoire religieuse* (1886) أن الشعوب السامية شعوب موحدة في الأصل كما تدل الدراسات اللغوية المقارنة للفظ (إل) و(إيل) في مختلف اللغات السامية التي انتشرت في شتى أنحاء الشرق الأدنى القديم؛ بل يرى رينان أن العرب كانوا في الأصل موحدين ويعبدون إلهاً واحداً هو الإله "إيل"، وقد تحرف اسمه فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل⁽¹⁰¹⁾. وممن يؤيد أن الأصل في الدين التوحيد وليس الشرك الإسكتلندي أندرو لانغ؛ حيث يرى لانغ في كتابه (صناعة الدين) *Making of Religion* أن فكرة الإله الأوحد الخالق والمدير توجد عند الشعوب البدائية؛ مما يؤكد أسبقية التوحيد على الشرك. يقول لانغ: "سنوضح أن بعض الشعوب البدائية لا يقلون توحيداً عن النصارى؛ فهم يؤمنون بإله أعظم ولا يخلعون صفاته على غيره"⁽¹⁰²⁾، ويوافق هذا القول ويليم

شميدت Wilhelm Schmidt في كتابه ذي الاثني عشر جزءاً: Der Ursprung der Gottesidee (أصل فكرة الله) (1912-1954م)؛ حيث توصل - من خلال دراسته للقبائل البدائية ومعتقداتها - إلى رجوع هذه المعتقدات إلى نقطة انطلاق واحدة، تتمثل في الاعتقاد بوجود (القديم الكل)؛ أي الإله الواحد رب السماء، هذا الرب الذي يوجد لدى كل القبائل الموجودة في العالم يشابه إله النصرانية⁽¹⁰³⁾، وقد سُمي هذه النقطة (التوحيد القديم) Umonotheismus الذي تلاه الشرك⁽¹⁰⁴⁾.

إن الخيط التوحيدي المستمر الذي تتبعناه فيما سبق انطلق في بدايته من الحنيفية، وهي ملة إبراهيم كما أفصي في نهاية المطاف إليها أيضاً. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁽¹⁰⁵⁾. فالحنيفية قد نشأت منذ عهد أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - واستمرت حتى ظهور الإسلام. والذي يهمنا هنا ليس دراسة الحنيفية دراسة مفصلة وإنما تأكيد استمرارها حتى ظهور الإسلام؛ مما ينفي حدوث التطور التصاعدي في الفكر الديني قبل الإسلام⁽¹⁰⁶⁾.

فالحنفاء هم العرب الذين ظلوا على دين إبراهيم - عليه السلام⁽¹⁰⁷⁾ - حيث لم يشركوا مع الله غيره. فهم لم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية، كما نبذوا الوثنية. يقول الشهرستاني: "ومنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وينتظر النور النبوي، وكانت لهم شرائع، منهم زيد بن عمرو بن نفيل، وأمّية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعامر بن الظرب العدواني وحرم الخمر على نفسه في الجاهلية، ومن حرمها في الجاهلية قسيس بن عاصم، وصفوان بن أمية الكناني". قال: "ومن الموحدين المقربين بالبعث زهير بن أبي سلمى الشاعر"⁽¹⁰⁸⁾. ويقول ابن الكلبي: "ومن بقي من العرب على بقية من دين إسماعيل معد وربيعه ومضر"⁽¹⁰⁹⁾. مثل هذا القول يدل دلالة واضحة على استمرار التيار التوحيدي دون انقطاع حتى مجيء الإسلام.

ولم يكن الوجود الحنفي مقتصرًا على مكة بل كان الحنفاء منتشرين "في معظم أرجاء الجزيرة العربية؛ فانتشروا من اليمن ونجران، مروراً بمثلث المدينة - مكة - الطائف وانتهاء بتخوم بلاد الشام في الشمال الغربي من جهة،

ومن اليمامة في الشمال الشرقي مروراً بالبحرين وعمان وحضرموت، وانتهاء باليمن مرة أخرى " (110).

هؤلاء الحنفاء - بلا شك - كانوا مستقيمين على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، حيث "نبدوا عبادة الأصنام، وكل ما يتعلق بها من طقوس، وتمسكوا بالديانة الإبراهيمية الحقة، تاركين عبادة قومهم إلى عبادة الله وحده" (111). ومن الثابت تاريخياً أن هؤلاء الحنفاء لم يكونوا منكفئين على أنفسهم؛ بل كانوا يتحركون لإحداث التأثير المطلوب وإعادة الناس إلى جادة الصواب؛ حيث حفظ لنا التاريخ من أسماء هؤلاء الحنفاء قس بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمّية بن أبي الصلت، وأبو قيس بن أنس، والمتلمس بن أمّية الكناني، وخالد بن سنان، وغيرهم ممن وصفوا بأنهم لم يسجدوا لصنم، ولم يأكلوا مما ذبح للأنصاب، ولم يتعاطوا الخمرة، وكانوا كثيري التأمل والتعبد، كما اتصفوا بالفضائل. ولكل هذا اعتبر النبي - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء على ملة إبراهيم، وعد مصيرهم الجنة، على الرغم من عدم دخولهم في الإسلام (112).

ولقد عرف هؤلاء الحنفاء وأمثالهم معنى الألوهية رافضين اتخاذ الأصنام واسطة - كما يزعم المشركون - لتقربهم إلى الله زلفى؛ فهذا هو قس بن ساعدة ينادي في الناس في سوق عكاظ (113) قائلاً: "أيها الناس؛ اجتمعوا واسمعوا وعوا، وإذا وعيتم شيئاً فانتفعوا: إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات وأرزاق وأقوات. وبحار تغور وسقف مرفوع، ومهاد موضوع. أقسم بالله قسماً لا حائثاً ولا آثماً، أن لله ديناً أحب من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم أوانه، وأدرككم إبانة، فطوبى لمن أدركه فآمن به، واتبع هداه، وويل لمن خالفه وعصاه. مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام أم تركوا هناك فناموا؟ يا معشر بني آدم: أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعواد؟ طحنهم الشرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله. كلا؛ بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود:

ومما قال زيد بن عمرو من الشعر الدال على توحيده لله :

أرباً واحداً أم ألف رب	أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان رباً	لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات	وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجلاً	كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم	فيربل منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً	كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربي	ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها	متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان	وللكفار حامية سكير
وخزي في الحياة وإن يموتوا	يلاقوا ماتضيق به الصدور

وكون زيد كان يحاول إعادة الناس إلى التوحيد ونبذهم الأصنام والأوثان لم ترق دعوته هذه لعمه الخطاب، ومن هنا كان العم يعمل على إيذائه؛ بل أخرجه من مكة، حيث خرج زيد إلى أعلى مكة فنزل حراء، ثم أوكل الخطاب مهمة مراقبة زيد لمجموعة من شباب مكة؛ حيث طلب منهم منعه من دخول مكة، فكان لا يدخلها - رحمه الله - إلا سراً. يقول ابن هشام: "فإذا علموا بذلك (أي بدخوله مكة) آذنوا به الخطاب، فأخرجوه وأذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتبعه أحد منهم على فراقه" (118). ونظراً لكل هذا خرج زيد إلى بلاد الشام وسأل عن أعلم النصارى فقبل راهب بميعة من أرض البلقاء، فقدم إليه زيد وسأله عن الحنيفية فأخبره الراهب بقرب زمان نبي يخرج من بلاد العرب، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية وطلب منه اللحاق بهذا النبي. حينها خرج زيد يريد مكة ولكنه تعرض لبعض المعتدين عندما كان في بلاد لخم فقتلوه (119).

الخاتمة

يتبين من كل ما تم طرحه مايلي :

- 1 - أن الحاجة إلى الدين من الحاجات الضرورية لدى الإنسان، ومن هنا لم يكن الدين أمراً طارئاً في حياة الإنسان كما تزعم المدرسة التطورية؛ بل هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.
- 2 - أن هناك خلافاً في الكثير من الدراسات التي تناولت الفكر الديني بشكل عام والفكر الديني في الجزيرة العربية على وجه الخصوص؛ حيث يرى كثير من الدارسين أنه كان هناك نوع من التطور في الفكر الديني لدى الإنسان العربي قبل الإسلام، تدرج الإنسان فيه من عبادة قوى الطبيعة وتمثيلها ببعض التماثيل حتى وصل أخيراً إلى التوحيد، ومن هنا فإن غالبية هؤلاء الباحثين - عند تناولهم الحياة الدينية في الجزيرة العربية قبل الإسلام - غالباً ما يبدوون بالحديث عن عبادة قوى الطبيعة والوثنية قبل أن يتم الانتقال إلى الحديث عن التوجه إلى التوحيد الذي يظهر مع مطلع القرن الرابع الميلادي من وجهة نظرهم.
- 3 - أن مثل هذا الطرح - كما رأينا في هذا البحث - يخالف ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حيث نعلم من هذين المصدرين أن آدم - عليه السلام - وهو أول إنسان في تاريخ البشرية كان مسلماً موحداً. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾⁽¹²⁰⁾، وقال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِلدِّينِ أَنْ يَكُونَ الْفِطْرَةُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹²¹⁾.
- 4 - أن الناس استمروا على التوحيد منذ عهد آدم إلى عهد نوح - عليه السلام - حينما بدأ الشرك يظهر في الناس. فأرسل الله - سبحانه وتعالى - نوحاً - عليه السلام - من أجل إعادة الناس إلى جادة الصواب. قال

تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (122).

5 - أن الأبحاث اللغوية والتاريخية أثبتت وجود التوحيد بين الشعوب السامية قاطبة، وأثبتت أن الشرك هو الطارئ وليس هو الأصل؛ حيث يرى العالم الفرنسي رينان في كتابيه المشهورين *Histoire générale et système comparé des langues sémitiques* (1855) و *Études d'histoire religieuse* (1886) أن الشعوب السامية شعوب موحدة في الأصل كما تدل الدراسات اللغوية المقارنة للفظ (إل) و(إيل) في مختلف اللغات السامية التي انتشرت في شتى أنحاء الشرق الأدنى القديم.

6 - أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الدعوات التوحيدية، لعل أهمها دعوة إبراهيم، عليه السلام؛ حيث اقترن التوحيد في الجزيرة العربية ببناء الكعبة، كما شهدت الجزيرة العربية العديد من الدعوات التوحيدية التي جاءت بعد إبراهيم، عليه السلام، منها دعوة صالح في شمال غرب الجزيرة وهود في جنوب شرقها - عليهما السلام - ودعوة شعيب، عليه السلام. وعلى الرغم من صعوبة تحديد تواريخ هذه الدعوات التوحيدية فإنها كانت - بلا شك - أقدم من التوحيد الذي ظهر في القرن الرابع الميلادي، ومن هنا فالتوحيد لم يعتبر جديداً في الجزيرة العربية في القرن الرابع الميلادي، بل كان هو الأصل في الدين.

7 - مع ندرة ذكر التوحيد في النقوش المتوافرة لدينا - كما رأينا - كان هناك في جنوب الجزيرة العربية وجود للتوحيد منذ فترة سبقت القرن الرابع الميلادي. فظهور الإله ذي سماوي في نقوش ممالك الجنوب منذ مطلع العصور الميلادية يدل على عبادة إله السماء (رب السماء)؛ حيث عثر في "هجر بن حميد" من أرض قنابان على نقش يعود تاريخه إلى القرن الأول الميلادي، وفيه يظهر هذا الإله، وفي القرن الرابع الميلادي اختلفت الإشارة إلى المعبودات الوثنية، وبرز الإله ذو سماوي بشكل ملحوظ. ومع يقيننا بأن الديانات السماوية التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية

منذ فترات مبكرة في تلك الفترة كان لها أثر في وجود هذا التوحيد في النقوش. وربما دخلت اليهودية الجزيرة العربية في عام 70 م عندما تم تدمير بيت المقدس على يد الرومان أو قبل ذلك، إلا أن هناك بعض الأسباب الأخرى، تمثلت في توحيد البلاد سياسياً تحت سلطة ريدانية وما رافق ذلك من عودة للنشاط الاقتصادي.

8 - بالنظر إلى شمال الجزيرة العربية نجد أن هناك إشارات في بعض النقوش، التي قد يفهم منها نوع من الإيمان بإله واحد؛ بل نجد في الشعر الجاهلي الذي استعرضناه ما يؤكد وجود التوحيد؛ فعندما انتشرت عبادة الأصنام في عهد عمرو بن لحي الخزاعي وجد من العرب المعاصرين من أنكر تبنيه لعبادة الأصنام وتشجيعها. يقول شحنة بن خلف الجرهمي متحسراً على دين التوحيد الذي تعرض لتحريف على يد عمرو بن لحي الخزاعي:

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل سيصطفي دونكم للبيت حجاجا

لكن عمرو بن لحي الخزاعي نجح - يخبرنا الخربوطلي - في إخماد أصوات الاحتجاج بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة، وهكذا استمرت قبيلة خزاعة تتولى شؤون الكعبة المشرفة وتمارس الوثنية لما يقرب من خمسة قرون. وعلى الرغم من كل هذا نجد أن أكثر الصور وضوحاً أمامنا كمؤرخين للتوحيد في شمال الجزيرة العربية في تلك الفترة هي الحنيفية.

9 - يجب الابتعاد عن استخدام مفردة "تطور" عند دراستنا للدين أو للفكر الديني؛ لأن هذه المفردة توحى بتطور تصاعدي من عبادة قوى الطبيعة والوثنية إلى التوحيد؛ مما يوحي بأن الأصل في الدين الشرك قبل أن يصل الإنسان بعد تطوره إلى التوحيد.

10 - يرى الباحث أنه عند دراسة الفكر الديني في الجزيرة العربية قبل الإسلام يجب أن تكون البداية بالتوحيد على الرغم من قلة المعلومات المتوافرة لنا كمؤرخين لكي لا يكون هناك تكريس لمفهوم التطور الديني الذي يوحي بأن الجزيرة العربية لم تعرف في تاريخها القديم التوحيد إلا بدءاً من القرن الرابع الميلادي وتحت تأثير من الديانتين التوحيديتين اليهودية والنصرانية، وهذا فيه تجن ليس على تاريخ الجزيرة العربية القديم فقط، بل على القرآن الكريم والحديث الشريف اللذين يخبراننا بأن الأصل في الدين هو التوحيد، وأن الجزيرة العربية شهدت بعض الرسالات التوحيدية، بعد ذلك دخلت الوثنية الجزيرة العربية وانتشرت بين سكانها كما انتشرت الكثير من العبادات الأخرى؛ ولكن هذا الانحراف عن جادة التوحيد لم يكن درجة في سلم تطور الفكر الديني؛ بل كان نوعاً من الانتكاسة.

الهوامش والمراجع

يتقدم الباحث بشكره لمركز بحوث كلية الآداب التابع لعمادة البحث العلمي بجامعة الملك سعود على دعمه هذا البحث.

- (1) ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، بيروت: دار لسان العرب، د.ت. مادة (دين).
- (2) القرآن الكريم، الصفات: 53.
- (3) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق بشار بن عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م، ص 219، حديث رقم (2459).
- (4) الجزري، أبو السعادات المبارك: **النهاية في غريب الأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناجي، ج 2، بيروت: المكتبة العلمية، 1979م، ص 370.
- (5) Oxford Dictionary of English, Oxford, Oxford University Press, 1998.
- (6) فريزر، جيمس: **الغصن الذهبي**، ج 1، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1971 م، ص 263.
- (7) انظر - على سبيل المثال - المسيحي، عبد الوهاب: **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر**، القاهرة: دار الشروق، 2009م.
- (8) James, William: **The Varieties of Religious Experience**, New York, Modern Library, p. 31.
- (9) Cassirer, Ernst: **The Individual and the Cosmos in Renaissance Philosophy**, New York; Hill, Christopher: 'Science, Religion, and Society in the 16th and 17th Centuries', **Past and Present** 32, pp. 110-112.

- (10) الغصن الذهبي، ص 27.
- (11) المنقوش، ثريا: التوحيد في تطوره التاريخي، بيروت: دار الطليعة، 1977م، ص 10.
- (12) - ftnalt Murti, T. R. V: **The Central Philosophy of Buddhism: a Study of the Madhyami-ka system**, Munshiram Manoharlal, New Delhi.
- (13) القرآن الكريم، الكافرون: 6.
- (14) القرآن الكريم، النساء: 171.
- (15) - Costanza, S (1955), "La synkrisis nello schema biografico di Plutarco" Messina 4: 127-154.
- (16) تونبي، أرنولد: تاريخ البشرية، ترجمة نيقولا زيادة، ج1، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1985م، ص 19.
- (17) علي، جواد: المفصل في أديان العرب قبل الإسلام، القاهرة: دار الشعاع، 2004م ص 18.
- (18) لسان العرب: مادة (طور).
- (19) القرآن الكريم، نوح: 14.
- (20) السيوطي، جلال الدين وجمال الدين المحلي: تفسير الجلالين، القاهرة: دار الحديث، (د.ت)، تفسير قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: 14).
- (21) لسان العرب: مادة (طور).
- (22) انظر: Darwin, Charles (1936), The origin of species by means of natural, The Modern library, New York.
- (23) باخشوين، فاطمة: الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام منذ القرن الأول الميلادي حتى ظهور الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، 1993م، ص 17.
- (24) انظر عن هذه النظرية Boas, Franz (1911) [1983], The Mind of Primitive Man. Greenwood Press Reprint; Boas, Franz (1940) [1995], Race, Language, and Culture. University of Chicago Press; Lewis, Herbert (2001), "Boas, Darwin, Science and Anthropology." Current Anthropology 42(3): 381-406; Stocking, George W. (1968) [1982], Race, Culture, and Evolution: Essays in the History of Anthropology. University of Chicago Press; Kuper, Adam (1988), The Invention of Primitive Society: Transformations of an Illusion. Routledge.
- (25) القرآن الكريم، الأنعام: 75-78.
- (26) لقد ناقش بعض العلماء مسألة عصمة الأنبياء بالتفصيل. انظر: العتيبي، فهد، الميسر في تاريخ هداة البشر، الرياض: دار الزهراء، 2009م، ص 38-53.
- (27) القرآن الكريم، الأنعام: 79.
- (28) القرآن الكريم، النحل: 120.

- (29) القرآن الكريم، إبراهيم: 35.
- (30) القرآن الكريم، العنكبوت: 16.
- (31) القرآن الكريم، الأعراف: 172.
- (32) باخشوين، فاطمة: الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2002م، ص 77.
- (33) القرآن الكريم، الأعراف: 172.
- (34) القرآن الكريم، البقرة: 213.
- (35) التميمي، محمد بن حبان: صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1993م، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، حديث رقم (6190) 14/ 69.
- (36) أخرجه الطبري في تفسيره 2/ 194.
- (37) العقاد، عباس محمود: الله، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص 10. قارن الخطيب، عبد الكريم، قضية الألوهية بين الفلسفة والدين، بيروت: دار الفكر، ص 20.
- (38) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين، ص 24.
- (39) - Bird-David, Nurit (1991), "Animism Revisited: Personhood, environment, and relational epistemology", **Current Anthropology** 40, P. 69.
- (40) يحيى، لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت: دار النهضة العربية، 1979م، ص 379.
- (41) لمزيد من التفاصيل انظر: Frazer, J. G. (1910), Totemism and Exogamy (four volumes), London, Macmillan Co.
- (42) العقاد، عباس محمود: إبراهيم أبو الأنبياء، بيروت: دار الكتاب العربي، 1967 م، ص 8.
- (43) قارن ما قاله مؤخراً يحيى الجمل نائب رئيس الوزراء المصري في برنامج "مصر النهارده"؛ حيث قال: "إن الشعب المصري شعب متدين وابتدع الدين قبل وجود الأديان ونادى بالتوحيد قبل الأديان السماوية".
- (44) إبراهيم أبو الأنبياء، ص 245.
- (45) الله، ص 246.
- (46) حتى، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج1، بيروت: دار الثقافة، 1970م، ص 127.
- (47) الناصوري، رشيد: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت: دار النهضة العربية، ص 51.
- (48) الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت، 2002م، ص 75.
- (49) العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 379.

- (50) بافقيه، محمد عبد القادر وآخرون: **مختارات من النقوش اليمنية القديمة**، تونس، 1985م، ص 57-58.
- (51) - Hoyland Robert: **Arabia and the Arabs from the Bronze Age to the Coming of Islam**, London: Routledge, p. 139.
- (52) - Athanassiadi, Polymnia and Michael Frede (eds): **Pagan Monotheism in Late Antiquity**, Oxford University Press, Oxford, p. 2.
- (53) القرآن الكريم، الحج: 31.
- (54) محمود عرفة محمود: **العرب قبل الإسلام: أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم**، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995 م، ص 205.
- (55) القرآن الكريم، الروم: 30.
- (56) - Goode, William: **Religion Among the Primitives**, New York: the Free Press, p. 22.
- (57) - Milbank, J (1997), "History of the One God", **HeyJ 38**, p. 372.
- (58) انظر الفيومي، محمد: **القلق الإنساني: مصادره، تياراته، علاج الدين له**، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، 1975م، ص 390-391.
- (59) - Renan, Ernest: **Histoire générale et système comparé des langues sémitiques**, Paris, Études d'histoire religieuse. London: R. Bentley.
- (60) الجرو، أسمهان: "الفكر الديني عند عرب جنوب شبه الجزيرة العربية منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي"، **مجلة أبحاث اليرموك**، مجلد 14، العدد 1، 1998م، ص 220.
- (61) التكوين: 16: 1.
- (62) التكوين: 33: 20. انظر: لاوت، رينهارد، إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ترجمة: غانم هنا، دمشق: خطوات للنشر والتوزيع، 2006م، ص 224.
- (63) حتى، فيليب: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق، بيروت: دار الثقافة، 1958م، ص 127.
- (64) انظر - على سبيل المثال - أبو الحسن، حسين: **نقوش لحبانية من منطقة العلا**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2002م، ص 29؛ أسكوبي، خالد، دراسة تحليلية مقارنة لنقوش ثمودية من منطقة رم بين ثلثوات وقيعان الصنيع جنوب غرب تيماء، الرياض: دار الملك عبد العزيز، 1428هـ، ص 306.
- (65) الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام منذ القرن الأول الميلادي حتى ظهور الإسلام، ص 22.
- (66) البقرة: 97-98.
- (67) انظر: الزبيدي، محمد عبد الرزاق الحسيني: **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت. مادة (إيل).

- (68) انظر: الصباغ، عماد، الأحناف: دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقة العربية قبل الإسلام، دمشق، دار الحصاد، 1998م، ص 17.
- (69) الأحناف: دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقة العربية قبل الإسلام، ص 23، ص 26.
- (70) القرآن الكريم، الأنبياء: 42.
- (71) القرآن الكريم، الزخرف: 45.
- (72) القرآن الكريم، الإسراء: 110.
- (73) المفصل في أديان العرب قبل الإسلام، ص 26.
- (74) - Peters, F. E.: **Muhammad and the Origin of Islam**, Albany: State University of New York Press, p. 107.
- (75) الفاكهي، محمد بن إسحاق: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن دهبش، ج 5، بيروت: دار خضر، 1414هـ، ص 191.
- (76) الفقير الذي يساعده الناس دون أن يسأل.
- (77) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج 5، ص 191.
- (78) الأنصاري، عبد الرحمن، "الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية"، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الرياض: جامعة الملك سعود، 1989م، ص 4.
- (79) القرآن الكريم، البقرة: 127.
- (80) القرآن الكريم، البقرة: 125.
- (81) القرآن الكريم، البقرة: 132.
- (82) مهران، محمد بيومي: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (في بلاد العرب)، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، 1995م، ج 1، ص 125-123.
- (83) عن الآراء التي ترى وجود عاد في الشمال، انظر: الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت، ص 84-81.
- (84) القرآن الكريم، الأحقاف: 21.
- (85) انظر: الميسر في تاريخ هداة البشر، ص 50.
- (86) القرآن الكريم، الأعراف: 65.
- (87) القرآن الكريم، هود: 50.
- (88) القرآن الكريم، سبأ: 15.
- (89) الحياة الدينية في ممالك معين وقتبان وحضرموت، ص 89.
- (90) القرآن الكريم، العنكبوت: 61. يتكرر هذا السؤال وإجابته لدى المشركين بالإقرار بوجود الله

- الخالق المدير في العديد من سور القرآن الكريم. انظر: العنكبوت: 63، الزخرف: 9، لقمان: 25، الزمر: 38.
- (91) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج 3، القاهرة: المطبعة الميمنية، ص 224.
- (92) المفصل في أديان العرب قبل الإسلام، ص 102.
- (93) الخثعمي، مسفر، "تطور الفكر الديني في منطقة عسير في فترة ما قبل الإسلام"، اللقاء العاشر لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون، 2009 م، ص 11.
- (94) انظر "الفكر الديني عند عرب جنوب الجزيرة العربية منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي"، ص 243. هذا، ويرى بعض المستشرقين أن ظهور عبادة هذا الإله كانت نتيجة تأثير الديانتين اليهودية والنصرانية.
- (95) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 1، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ص 44.
- (96) ديوان سلامة بن جندل، صنعه: محمد بن الحسن الأحول، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ص 182.
- (97) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1996م، 5/228.
- (98) يرى البعض أن مشركي مكة لم يكونوا يعرفون هذا الإله. ففي الحديثية عندما طلب النبي أن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. لمزيد من التفاصيل انظر: المفصل في أديان العرب قبل الإسلام، ص 34-35.
- (99) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، فهرسه: يوسف أحمد داغر، بيروت: دار الأندلس، 1978 م، ص 29.
- (100) الخربوطلي، علي حسين: الكعبة على مر العصور، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ص 30.
- (101) - Renan, Ernest: **Histoire générale et système comparé des langues sémitiques**, Paris, Études d'histoire religieuse. London, R. Bentley.
- (102) - Lang, Andrew: **Making of Religion**, London, Longmans, p. 181.
- (103) - Brandewie, Ernest: **Wilhelm Schmidt and the Origin of the Idea of God**, University Press of America, p. 30.
- (104) المفصل في أديان العرب قبل الإسلام، ص 31-32.
- (105) القرآن الكريم، النساء: 125.
- (106) بيروت: الأحناف، ص 26.
- (107) لم يكن هؤلاء الحنفاء نصارى كما يزعم بعض العلماء. لمناقشة هذا الرأي انظر: مختار، محمد علي، "الحنيفية والحنفاء"، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني:

- الجزيرة قبل الإسلام، تحرير: عبد الرحمن الطيب الأنصاري وآخرون، الرياض، جامعة الملك سعود، ص 165-166.
- (108) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد: الملل والنحل، ج2، القاهرة: مكتبة الحلبيين، 1968م، ص 251.
- (109) ابن الكلبي: الأصنام، ج3، تحقيق: أحمد محمد عبيد، أبوظبي: المجمع الثقافي، 2004م، ص 13.
- (110) الأحناف، ص 75.
- (111) الأحناف، ص 32.
- (112) الأحناف، ص 38.
- (113) يروى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سمع هذه الخطبة لكنه لم يحفظها، غير أن أبا بكر قد حفظها وأعادها على الرسول فيما بعد، انظر: الأحناف، ص 34.
- (114) البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب: تاريخ بغداد، ج2، بيروت: دار الكتب العلمية، ص281.
- (115) الملل والنحل، ج2، ص251.
- (116) القرآن الكريم، الإخلاص: 1-4.
- (117) الأصنام، ص 123.
- (118) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، ج1، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبدالله أبو صعيلىك، الأردن: مكتبة المنار، 1988م، ص 288.
- (119) ابن كثير، إسماعيل بن عمر عماد الدين: البداية والنهاية، ج2، دار الريان للتراث، 1408هـ، ص315.
- (120) القرآن الكريم، الأعراف: 172.
- (121) القرآن الكريم، الروم: 30.
- (122) القرآن الكريم، الأعراف: 59.